كلمة الأستاذ جورج كفوري

وكيف لا ألبّي بفرح دعوة الصديق العزيز إيلي أبو طعان للإحتفاء بصدور تحفته «زمان يا زحلة» التي طال انتظارها، والتي ولدت كما الروائع، كما الشعاع يخترق جدار المألوف في إبداعات زحلة الكثيرة. التي نمت كمغامرةٍ سحرية الشغف توهّج بها قلب عاشقٍ يغار من كلّ عاشقٍ آخر في حبّه لزحلة. كرؤيةٍ سمفونية النكهة تكوكبت في خيال ذوّاقةٍ أرادها رائعةً تغار منها الروائع. كحلمٍ شعشعانيّ الألق طالما دغدغ عالم إيلي أبو طعان الإبداعيّ فبات أسلوب حياة، بل ضيفة شرف تحلُّ بنشوةٍ وحبور على خفقاته وسكناته، في حاله وترحاله، في أوقات عمله المشحونة بالعطاء، وأوقات فراغه العامرة بالدعابة والمرح.

كيف لا ألبّي بكبرٍ وخشوع، وفي هذه الدّار العبيقة بأريج تاريخٍ مقدّس فيه تاريخُ المآتي والبطولات ستولد التحفة وتعتمد. وكيف لا يستبدّ بي شوقُ الكتابة والكلام.

لكنني سرعان ما تهيّبت وكدتُ أحجمُ فقد كنت أظنُّ أنّ المهمّة سهلةٌ سائغةُ المذاق. لكنني اكتشفت أنّ الأمر ليس عادياً، وأن الأساليب المعهودة والتقنيّات المألوفة ليست كافيةً لمقاربة هذا العمل الجديد. أقاربه كألبومٍ يكتنز صوراً فوتوغرافيّةً نادرةً اقتضى جمعها سنوات؟ لا، فالألبوم جمعٌ لصورٍ جامدةٍ جفّ فيها نسغُ الزمان أما «زمان يا زحلة» فتدفّقٌ خلّاقٌ تحوّلت معه الصور إلى جداول حياة، سكبتها كما الأشعّة أنامل نيكول صدقة فوق أشرعة الصفحات فجاءت رحلةً في عوالم الألق والبهاء. وإذا قال «كانت» ليس الجمال في عرض الأشياء الجميلة بل في جمال عرض الأشياء. فما عساه يقول إذا كانت الأشياء جمالاً أخّاذاً تعرض وترصف بجمالٍ أخّاذ؟

أدخل إليها كمعرض صورٍ تقدّم بإتقان؟ لا فالمعرض ارخبيل صورٍ استقلّت كلّ واحدةٍ منها بنفسها كجزيرةٍ منفصلة. أما «زمان يا زحلة» فتجعلك تشعر أنّك في رحابِ جميلةٍ تتعانق فيها الأزاهير وتتشابك الأغصان وتتعانق لتشكّل معراجاً بصرياً كلامياً يرتقي بك من الجميل إلى الأجمل فالأجمل على وقع مجاديف أدبية مجنّحة تقمّشها وصاغها يراع الثقيف أجود فرنسيس الذي تألّق ببهيّ الشعر والخواطر، واختزل لحظاتٍ تاريخيّةً تجاوزت السرد التاريخي والتاريخ إلى حديقةٍ أكاديميّة الإبداع تتخاصر فيها الصور والكلمات وتميسا معاً، تتغاوى الطّرف والحقائق والنوادر والرموز. وأروع الأحداث وأجلّها ما تحوّل منها أسطورةً تغذو روح التاريخ أو رمزاً يعايشك زهولك وفضولك، ويغدو أقرب إليك من نفسك وأشدّ التصاقاً بك من عوالمك الحميمة. أعبر صفحاتها كتاريخ لمدينةٍ في حقبةٍ معينة؟ لا، فالتاريخ ينتسب إلى الماضي ويضعك على مسافةٍ بعيدةٍ منه، أما «زمان يا زحلة» فلا ينتسب إلى الماضي إلّا بقدر ما ينتسب النّهر إلى الينبوع. فها هي الوجوه تتدفّق حيّةً باسمةً، ترنو إليك تحفّ بك، تسامرك، تؤانسك، تحاورك، تجتذبك من لهفة النظر في عينيك، من سورة الفضول ونشوة الجمال في يقينك ورؤاك، توقظ الماضي فينساب في إمداء حاضرك وغدك، ويقبل الزمان إليك ليعانقك، لا كذكرى، بل كحضورٍ إحتفاليٍّ يتجدّد وينمو، فلا تعود تدري إذا كنت في غمرة الامس أم في رحاب الحاضر. لا تعود تدري إذا كنت أمام أشكالٍ جامدةٍ أم في تدفّقٍ حيّ، أم هي الحياة بلغت كمالها الفنيّ في هذه الصور فتجمّدت في ذروة الكمال كما يقول « عمر أبو ريشه»: أخاف تموت رؤاتي إن تتحرّكي فتجمدي.أو كما قال المتنبي: « تناهى سكون الحسن في حركاتها» أي أنّها وصلت إلى الكمال و مع الكمال تسكن الحركات وتنضب أبعاد الزمان ماضياً وحاضراً في لحظته السرمدية التي تنبع منها الأزمنة في شتّى اتجاهاتها. تشعر أن هذه الصور التي تحدّق بها أنّها هي التي تحدّق بك عبر عدسة خشادور وحليم الفاخوري السحرية الإبداع. تشعر أن الأشخاص يفرّون من الصور، يجتازون الفاصل الوجودي بين الأمس والآن بين الموت والحياة، يخطرون بتراقصون، يدعونك إلى مشاركتهم بهجة الإحتفال ونشوة الكأس في الوادي الظليل على أنغام البردون التي تتهادى مع العتابا والأدوار الطربية والأوتار الذهبية الرنين، تحدّثك عن مآثر زحلة وقمم تاريخها البطولي فتسكر مرّتين بحميا كؤوس الماضي الحيّ واحدةً وبالمفاخر والمآتي ثانيةً.

وأخيراً تدخل براءة المتلقّي ولهف العاشق، بعيداً عن التصنيف الثقافي لهذا العمل الفريد، فسائر الأشكال الثقافية التي تحاول إقحام «زمان يا زحلة» فيها ستسقط وتبقى هي نسيج وحدها. فتنقّل بين قصورها وحدائقها بعطش الصدّيّ إلى الإنتماء إلى المعرفة، إلى الجمال. سائل الإشخاص والوجوه عن قرنٍ مضى، واستمع بعفويّةٍ إلى حكايا الأبطال ومآثر الآباء والأجداد. حدّق في العيون والوجوه التي ستقترب منك بقدر ما تحدّق بها. ولكن حذارأن تمعن في التحديق فتنقلب الأدوار وتغدو الصور المسائلة وعليك أنت أن تجيب. ستقول لك: هذه زحلتنا بالأمس، وها هي صفحاتنا ملأى بجليل الأعمال والمحاولات، فماذا عن زحلتكم اليوم؟ أنتم كيف تملأون الصفحات المخصصة لكم؟ ماذا حلّ بإنجازاتنا نحن وأين انجازاتكم اليوم؟ هل ما زلتم ماضين في أداء الدور الذي بدأناه نحن؟ فكيف ستجيب؟ وهل ستجيب؟ أم هل ستشيح ببصرك وتخرج هرباً من الإجابة؟

عبثاً تحاول الهروب، لأن عالم « زمان يا زحلة» سيستوطنك وأسئلة أهله ستلحّ عليك ولن تستطيع التملّص منها ومن حضورها الطاغي، وهكذا تقرّ وتعترف أن «زمان يا زحلة» بات اليوم حاجةً ملحةً، ليس فقط للمكتبة الزحلية، بل لكلّ بيت، لكل زحليّ يعشق زحلة ويسعى إلى معرفتها وازدهارها وسموّها.

وأخيراً أسكت عن الكلام المباح لا لأنّني وفّيت واكتفيت بل لأنّ حكايا «زمان يا زحلة» تحتاج لألف شهرزاد ولألف ليلةٍ وليلة.

كلمة الأستاذ أجود فرنسيس

من هذه القاعة بالذات ومنذ حوالي ثلاثماية سنة كانت البداية. بالتحديد عام ١٧٢٧ حين بنيت مطرانية الفرزل وزحلة والبقاع للروم الملكيين الكاثوليك في زحلة، بعد نشأتها في الفرزل عام ١٧٢١. هذه القاعة حيث نحن الآن كانت البناء الأول. وتشاء الظروف أن نعلن إنطلاقة كتاب «زمان يا زحلة» من هذه القاعة بحضوركم الكريم وبحضور سيادة المطران أندره حداد الذي جدّدها وجعلها بهذا الجمال ودعيت بإسمه.

في لبنان مثلٌ عاميّ يقول: «البدك تحيرو خيرو» يتبادر هذا المثل إلى ذهني كلما أريد أن أكتب شيئاً عن زحلة أو لزحلة. فأنا أقع في الحيرة: عمّا أكتب؟ وماذا أكتب؟ فكلّ ما في زحلة يغري بالكتابة ... فماذا أختار؟ الذي يغوص في البحار والمحيطات مفتّشاً عن اللؤلؤ يفرح إذا ما وجد لؤلؤةً صغيرةً كانت أم كبيرة. أمّا هنا في زحلة فاللآليء متوافرةٌ وكلها حبّاتٌ تصلح أن تكون «واسطة العقد» وعليك انتقاء واحدةٍ! وهذه هي الحيرة.

في هذا السياق سأذكر سرّاً اكتشفته مؤخّراً في زحلة. لعلّه كان أحد الأسباب وراء كتابة «زمان يا زحلة»: من الظواهر العديدة التي تنفرد بها زحلة عن غيرها هي أنّك لا تجد فيها أصدقاء، فهي مدينةٌ خاليةٌ من الأصدقاء! تعيش فيها عشرات السنين وتتركها دون أن يكون لديك صديقٌ فيها. لكنّ الأهم من ذلك أنّك حين تبتعد عنها فإنّ حنيناً قويّاً وشوقاً لا يوصف يشدّانك للعودة إليها. فما هو السرّ.

بعد غياب عشرة سنين عن زحلة اكتشفت أن الإنسان عندما يعيش فيها، فهو يعيش مع أهله، الزحليون أهلٌ وأن تعيش بينهم فلست بحاجةٍ إلى الأصدقاء. في زحلة أنت في عائلةٍ كبيرة قد تقوم بين أفرادها خصوماتٌ ومشكلاتٌ حادة ولكنهم عند اللقاء أهلٌ وأشقاء. إذاً دفء العائلة أعادني إلى زحلة وهو شعورٌ لا يوجد في أيّة بقعةٍ أخرى. وفيها التقيت مجدداً بالسيد إيلي أبو طعان هذا الزحلاوي الأصيل الذي لم يفارق زحلة لشدّة تعلّقه بها. وعمل عشرات السنين على جمع أرشيفٍ من الصور حافظ عليها واعتنى بها. ومنذ خمسة عشر عاماً ذكر لي أنّ حلمه هو إيجاد طريقةٍ لإيصال هذه الصور إلى كلّ بيتٍ في زحلة. فكانت فكرة تأليف كتاب يتضمّن هذه الصور. وعندما عدت بهذا الشعور الذي ذكرته وحلم إيلي أبو طعان لم يتحقق بعد فقد عقدنا العزم على تنفيذه. إنضمت إلى فريقنا نيكول صدقة وهي فتاةٌ من جيلٍ طالع كنّا نعتقد أنّه لا يهتم للتراث ولا لتاريخ مدينته، همّه الوحيد التطورات العلمية الحديثة، فإذا بها تظهر لنا عشقاً لزحلة ولتراثها وهي على استعدادٍ لوضع ما تملكه من معرفةٍ في استعمال الكمبيوتر وما تتميز به من ذوقٍ وبراعة في الإخراج للمساهمة في تصميم الكتاب.

قاسمٌ مشتركٌ واحدٌ جمعنا نحن الثلاثة وهو حبّ زحلة وهدفٌ واحدٌ هو إيصال تراثها إلى كلّ بيتٍ فيها وإلى كلّ زحليٍّ يعيش خارجها. تراثٌ عظيمٌ يجب أن نحافظ عليه لأجيالٍ مقبلةٍ كي تفتخر بمدينةٍ عريقةٍ ذت تاريخٍ مجيد.

«زمان يا زحلة» كتابٌ فريدٌ مِن نوعه فهو ليس كتاب فنّ مع أنه تحفةٌ فنيةٌ. وهوليس كتاب شعر مع أنّه مزيّنٌ بأجمل الأبيات وهو ليس كتاب تاريخ مع أنّك تقرأ وترى التاريخ أمامك.

هو كتابٌ يضمُّ بحنانٍ بين دفّتيه مدينة زحلة خلال مئة عامٍ مصوّراً إياها كما هي من أبنيةٍ وطرقات وحياة إجتماعية زاخرة بمختلف النشاطات والأحداث...